التصوف الإسلامى

رسالته ومبادؤه

ماضيه وحاضره

للاستاذ محمود عبد العزيز محرم

اللهم أنجح مسعاهم ٠

هذه هى الخاطرة التى خطرت لى وأنا أقرأ هذا البرنامج الشامل الذى أعلنته مشيخة عموم الطرق الصوفية ٠ وقد رسمت هذا البرنامج بعد مداولات ومشاورات مع أبنائها ومريديها فى أطراف البلاد ٠ ثم أعلنته فى هذه الرسالة اللطيفة التى تقدمت بها الى العالم الاسلامى ، تتحدث فيها عن التصوف بين ماضيه وحاضره ، وعن رسالته ومبادئه ٠

وليس عجيبا حين ننهض بأمتنا أن يفزع رجال منا الى معانينا الخالدة ، وتراثنا النبيل ، ورجالنا الاوائل ، ودیننا الحنيف ، ومثالياتنا العريقة ، يستوحونها الهدى والارشاد ،والنور ، وقصد السبيل ، انه من المعلوم أن الامم لا تنبت كالنبات البرى ، وبخاصة بعد أن نشأ المجتمع البشرى فى أطواره الاولى ، انها تنزع دائما بعروقها وخصائصها وسلائقها الى ماضيها الثقافى والحضارى والاجتماعى والدينى ، تتخذ منه نارا ونورا الى مستقبلها الذى ترمقه ٠ فالمستقبل وليد اليوم ٠ واليوم هو ابن الامس ٠ والحياة كلها وحدة من يوم أن برأها الله الى يوم الناس هذا ، ثم الى يوم الدين ٠ ولئن كان هناك من الدعاة من يزعم لنفسه ، أو يزعم للناس ، انه من الممكن أن نبنى حياة اسلامية أو عربية جديدة دون أن نستوحى ماضينا ، فانه بذلك مجانب للصواب ، بعيد عن الحق ٠

وان التصوف لمن أهم الوسائل التى نستعين بها لبلوغ غايتنا ٠ « فالتصوف فى الاسلام هو الكمال فى الايمان ، والكمال فى كل شأن من شئون الحياة ٠ انه الخلاصة الزكية لكل دعوة ربانية ٠ انه الصدق ، والامانة ، والوفاء ، والايثار ، والنجدة ، والكرم ، ونصرة الضعيف واغاثة الملهوف ، والتعاون على البر والتقوى ، والتواصى بالحق والخير ، والتسابق الى فعل الخير أيا كانت سبله ووجهاته ٠ انه النضال لعزة الوطن ، ونصرة العقيدة ، وسيادة الايمان ٠ انه الصيحة الرهيبة فى وجه

الطغيان والاستبداد والعدوان كما صوره الكتاب العظيم الذى أصدرته مشيخة الطرق لصوفية ٠

وهذ هو ما نريده بالضبط ، نريد هذ التصوف العملى ، لا نريدتصوفا انعزاليا يتخلى رجاله عن مسئولياتهم فى هذه الحياة التى وهبها الله لنا وابتلانا بها ٠ وعلى هذا فنحن نأنس فى مشيخة عموم الطرق الصوفية الخير والرشد فى نهضتها الكبرى الحاضرة ٠ ونأنس فيها الخير حين تخرج على العالم الاسلامى باسلام محمد ورجاله بريئا خالصا من الزيغ والريب والضلال ، فى هذه الفترة التى نرى العالم فيها أحوج ما يكون الى الاعتصام بقواه الروحية ٠

وفى هذه الرسالة اللطيفة اشارات بارعة حازمة الى ما قام به رجال التصوف المخلصون من أعمال مجيدة ، فى سبيل الوطن ، وفى سبيل العلم ، وفى سبيل الدين ، وفى سبيل حياة أفضل لامة أفضل ٠ لقد كان المتصوفون وأساتذتهم من أهم الفئات التى نظمت المقاومة الشعبية ضد الفرنسيين فى مصر أيام حملة نابليون ٠ وأدخل السيد البدوى على نظام الطرق الصوفية ما يشبه نظام الجندية ، فقسم أتباعه الى فرق وكتائب ، وجعل عليها النقباء والخلفاء ٠ وكان يرى أن التصوف جهاد وعبادة ، وتربية روح ، وتقوية جسد ٠ وهدفه من ذلك بعث نهضة كبرى فى العالم الاسلامى تصمد للحروب الصليبية التى كانت تعصف بالعالم الاسلامى والعربى فى ذلك الوقت ٠ وكان يقول لاتباعه « ليس التصوف الزهد أو لبس الصوف ، انما التصوف أعمال ، ومجاهدة وأخلاق ، والاخذ بأيدى الناس الى خير الدنيا والآخرة » ٠

ولا يجوز أن ننسى الامام أبا الحسن الشاذلى وقد أبى الا أن يرافق المجاهدين فى ساحة القتال ، يدرس لهم ، ويبث فيهم الحمية ، ويذكرهم بفضل الله ، ويحضهم على حماية الدين والوطن ٠ وقد دخل علية علامة الاسلام وشيخه العز بن عبد السلام ، فاستمع الى أحاديثه فى مريديه وجنود الاسلام ، ثم خرج صائحا : هذا كلام قريب العهد من الله ٠٠ هذا كلام من الهام الله وهداه ٠ وأروع ما يؤثر عن الشاذلى انه كان ينشىء الاشبال ويبنى الرجال ، وقد سئل ذات مرة لماذا لم تترك كتبا ، مع انك بلغت أعلى ذروة فى علمى الحقيقة والشريعة،فكان جوابه هذا الجواب الجميل « أصحابى هم كتبى » أى أن رسالته كما كان يفهمها تلخصت فى خلق

جيل قوى مؤمن عامل . وهذه رسالة لا تفوقها رسالة أخرى فى باب التأديب والتهذيب وبناء الشعوب والاخلاق . وحسبه أن من كتبه ، كما آثر أن يعبر هذا الشيخ الجليل ، أبو المرسى العباسى ، وابن عطاء الله السكندرى .

وقد كتب الامام الغزالى الى ابن تاشفين ملك المغرب يستحثه على نجدة الاندلس « اما أن تحمل سيفك فى سبيل الله ونجدة اخوانك فى الاندلس، واما أن تعتزل امارة المسلمين ، حتى ينهض بحقهم سواك » . وشبيه بهذا ما قاله محيى الدين بن عربى للملك الكامل حينما تهاون فى قتال الصليبيين « انك دنىء الهمة ، والاسلام لن يعترف بأمثالك ، فانهض للقتال ، أو نقاتلك كما نقاتلهم ».

وكان رجال التصوف مرشدين ومعلمين ، عاملين فى ميدان الحرب و فى رحاب السلم ، ومنهم الامام عبد القادر الجيلانى الذى « أحاط به المريدون ، يتلقون عليه العلم ، كما ينقلون عنه آداب السلوك والعبادة ، فكان يقرأ لهم فى مسجده الكبير ببغداد ، دروس التفسير والحديث والفقه الشافعى والحنبلى وعلوم الاصول واللغة » ومن توجيهاته أن الله لا ينظر الى وجوه الناس وأحسابهم انما ينظر الى قلوبهم وأعمالهم . ومن توجيهاته كذلك أن المراد بالعلم هو العمل به ، فالفقيه هو من عمل بفقهه ، والمحدث لا يكون محدثا وحافظا الا اذا طبق الحديث على نفسه ، وقارىء القرآن اذا لم يعمل بكل حرف قرأه أو حفظه فقد برىء منه القرآن ورب القرآن .

والامام الرفاعى عرف بالكمال والاخذ بالعزائم . وكان يحمل عن الناس أثقالهم وأحمالهم ويبذل نفسه وما له لهم . ومن مبادئه العظيمة « أقرب الناس الى الله أنفعهم لعباده » .

وقد أورد أبو سراج الطوسى فى كتابه « اللمع » أقوالا عن التصوف لرجال من كبار المتصوفة . وكل هذه الاقوال تنطق بالغاية التى يسعى المتصوفون لتحقيقها ، وهى غايه اجتماعية ، تهدف الى خلق مجتمع واع سليم الادراك والذوق . من هذه الاقوال أن عمرو بن عثمان المكى كان يرى أن التصوف هو « أن يكون العبد فى كل وقت أعلم بما هو أولى فى الوقت » ومعنى هذا أن يكون المتصوف رجلا يفرق بين الاوقات والاشياء ،

فيعلم العمل المناسب والشيء الملائم لكل وقت ، وهذه مرتبة فى الادراك لا يبلغها الا المواطن الراجح والمجتمع الناضج . وسئل الجنيد عن التصوف فقال « أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم ، مع قوم كرام » وهذا سلوك اجتماعى مهذب لا يكون الا فى مجتمع مهذب . وهو ما يسعى الصوفية الى اقامته وبنائه .

هذا هو المجـــال أو الميدان الذى أتصوره موضع اهتمام الصوفية ورعايتهم ، أن يخلقوا مجتمعا نظيفا نبيلا عن طريق تربية الذوق والتزود بالعلم وتقوية الاجسام . وبهذا يخدمون وطنهم ودينهم خدمة جليلة .

وقد بر السادة الصوفية بوعدهم ، أو هم فى سبيل انجاز ما عاهدوا الله عليه ، فأرسلوا الدعاة الى الاقاليم لجمع الشمل وتصفية الجو ، وبعثوا بالمنشورات ، وطبعوا الرسائل ، وأصدروا مجلتهم « الاسلام والتصوف » التى نرجو لها مزيد التقدم حتى تغزو أسواق الثقافة كافة ، لتكون سلاحا وعضدا ونبراسا لشباب هذا الجيل فلا يضلوا فى بريق المنفعة الزائف ولا فى ريح المذاهب الانجلاليـــــة السموم . ودرهم ثقافة يجلو القلب والذوق والعقل خير من قنطار من الذهب .

محمود عبد العزيز محرم
مدرس بميت غمر الثانوية

دليل
الذوق
الممتاز

أصحاب امتياز التعبئة : مصانع تعبئة سيكو - س.ت ٣٠٩٤